الامم بأفرادها (١)

آن للسوريين عامة ولا سيما المتهذبين منهم والمتعلمين ان يعلموا جميع الوسائل التي رقت الأمم في الاديبات والماديات ويعرفوا كيفية التذرع بها الى مجاراة الغير في الرقي وان ما بلغه الناس في هذا العصر من العلوم والمعارف وما ادركوه من الآداب والفضائل وما استنارت به اذهانهم وارتقت عقولهم واتسعت مداركهم وهذب اخلاقهم وما بلغوه من التفنن والمهارة والاتقان في الزراعة والصناعة والتجارة وما اعتمدوا عليه من القوانين في السياسة والرئاسة والقضاء والادارة وما احرزوه من اسباب التمدن والعمران وما اتوه من جليل الاعمال وعظيم الحسنات ليس جميعه نتيجة الاتفاق وابن الرفاهية والكسل وانما هو ابن العمل والاجتهاد والتعب والعرق ابن الدرس والبحث والاستقراء والاختبار ابن الافراد والنابغين فما نراه اليوم من ترقي المعاصرين وتمتعهم بوسائل التقدم والنجاح انما اتى على يد تلاميذ خمسة وسبعين قرناً حسب رواية التوراة واكثر من ذلك على رأي العلماء الطبيعيين والمؤرخين وما مر بهم من الادوار كاف لتعليمهم والاخذ بأيديهم الى هذا المقام

فقد توالى على الجنس البشري ازمان كانت بين الشدة والرخاء والبؤس والنعيم واحاطت بابنائه المضرات والمنافع احاطة الهالة بالقمر واكتنفتهم العبر من جميع الجهات فكانوا تارة يعتبرون بها فينتفعون واخرى يتلاهون عنها فيفوتهم النفع ويتضررون . وعلى هذا المنوال كانوا يتراوحون في التقدم والتأخر والصعود والهبوط وكانت تتفاوت مراكز الأمم في مراتب العمران تفاوتاً عظيماً لم يزل بيناً صريحاً حتى الآن غنياً عن الدليل والبرهان . وذلك لعدم اعتدادها بالاسباب والمسببات والمقدمات والنتائج بنسبة واحدة

موضوع خطابي — الامم بأفرادها — واريد بالافراد النوابغ والشاذين الممتازين والمتفردين باعمالهم وما تيهم مجددين مخترعين مبتكرين واعني المحررين من رق العادات المستقلين في الاعتقادات الذين لا يكتفون بتحصيل الرزق والاهتمام بالاكل والشرب واللباس وما اشبه من شؤونهم الخاصة فقط ولا يقلدون التافه المبتذل من الموضوعات والشؤون ولا تصدهم العقبات وتثنيهم المعاكسات الذين يخلدون ذكرهم بفعالهم ويعد الواحد منهم بقام الالوف والملايين

هؤلاء هم الافراد الذين اعنيهم بكلامي الآن وهم الذين يجمعون شتات الأمم ويؤلفونها

(١) من خطاب لجرجي افندي نقولا باز تلاه في حفلة جمعية الاعتدال في غرف القراءة في بيروت يوم الاربعاء ١٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٧ م

او يقسمونها ويبعثرونها . يشيدون اركان مجدها ويرفعون اعلام عزها او يزعزعون دعائمها ويهدمون اسوارها . يقيمونها او يتعدونها . يغنونها او يفقرونها . يقوونها او يضعفونها . يقدمونها او يؤخرونها . يعزونها او يذلونها . ينشطونها او يخملونها . وبعبارة واحدة يؤثرون فيها حسب اميالهم ومبادئهم وغاياتهم . وهم نافع قلما يضر وضار قلما ينفع ومتوسط بين النفع والضر اي مفيد ومؤذ معاً . فالاول من حبات الله للخلق والثاني من تلاميذ ابليس والثالث من الجبلتين بدليل ما نراه من التباين والتناقض والاختلاف في نتائج اعمالهم الخاصة والعامة مما يؤيد القول بان الامم بافرادها والافراد بتربيتهم وتعليمهم صفحات التاريخ شهود عدول تبرهن على تأثير الافراد في الأمم وتوضح مالهم فيها من المآثر والاعمال بنسبة استعدادهم وقواهم ونقر بانها شاكرة لهم ممتنة او ناقمة منهم حاقدة عليهم ولا ننكر انها تنادي على رؤوس الاشهاد انها مدينة لهم بما تتمتع به من الحسنات او تصيح وتتأوه وتئن وتتنهد مما حملوها عليه ورغبوها فيه وعودوها اياه من السيئات . وقلما ذكر التاريخ غير الافراد في كل جيل ومصر وامة ودولة . وقلما عدد غير مناقبهم ونوه بغير فعالهم لما لهم من التأثير في الأمم

فمهما اشتغل العاديون اي العامة وكدوا واجتهدوا معها قلدوا وتشبهوا ومهروا واتقنوا معها تعددوا وتكاثروا وتناظروا وتزاحموا فلا يؤثرون في ذويهم تأثير الافراد في الخير او في الشر ولا يرقون صنائعهم وفنونهم ترقية الافراد لها ولو مرّ عليهم قرون برمتها ومهما بلغ عديد الامة في اي مكان وزمان كانت معها ساعدتها طبيعة البلاد ودرت عليها اخلاف الرزق والثروة معها سعت في سبل العمران ورغبت في نيل الاديبات والماديات لا قيام لها الاّ بافراد يحثونها على النهوض والثبات ويرشدونها الى اقوم السبل ويتولون زعامتها ويقودونها في سبل الخير العام باخلاص وبراعة وتفنن

ويختلف تأثير الافراد باختلاف مراكزهم في هيئة الاجتماع ويتباين بتباينها فكلما علا مركز الفرد ازداد تأثيره واشتد نفعه او ضره . والويل لامة لا تعبأ بافرادها ولا تعمل على تنشيط النافعين منهم ومعاونتهم وترقيتهم جهدها فانها لا محالة خاسرة لان ترقي الفرد لا يتوقف على سعيه الشخصي واعتماده على نفسه فقط واقتحامه المصاعب واجتيازه العقبات بل ان ارتقاءه مناط بالاحوال المحيطة به ولها تأثير فيه لا ينكره غير المكابر . وللأمم يد طولى في ايجاد الافراد كما ان للافراد يداً اطول في ايجاد الامم

وحيثما عرفت فيم الافراد وجلت اقدارهم فنشطوا واخذ بايديهم ووثق بهم وركن اليهم تعددوا وافادوا لان الوسائل المعاونة لهم تسهل سبل نجاحهم فيبلغ معظمهم او كلهم

مبلغ النفع الحقيقي بدلاً من بلوغ الربع او الثلث او النصف فقط . اي فرد يستطيع اليوم اشغال العالم بما شغله به الاسكندر وتيمورلنك ونابليون وامثالهم قديماً . في مكنة كل مستعد ان يصير اعظم من روسو وباستور وبرتلو ولكنه يندر جداً او يستحيل ان يوجد نيوتن ثانٍ على الارض اليوم او فيما بعد وما ذلك إلاَّ لأن الامم امست قادرة على تكييف افرادها بما بثه فيها الافراد من المبادىء والآراء وبامكانها جعلهم فضلاء مجردين الى النفع ولو باكراه . والفرق عظيم بين الفرد المفيد المخلص الغيري وبين الحشر المرائي الاناني . ذاك يسعد امته وهذا يشقيها والامم الحية تتطلب السعادة من جميع ابوابها بكل ما فيها من القوى

سطوة الافراد عظيمة على العقول وليس هذا بمستغرب فان من طبائع الناس تقليد كبارهم ونوابغهم كلٌّ حسب مهنته وحرفته وميله فالغني يقتدي بالاغنى منه والعالم بالاكثر علماً والاديب بالاوفر ادباً والفاضل بالافضل وهلم جرا

كل ما تتمتع به الامم من الحسنات قد جنته بواسطة الافراد . العلم والادب المعرفة والفضيلة الثروة والرفاهية المجد والشهرة جميع ذلك من نتائج اتعابهم وتفردهم . ارتقى الطب بافراد لا يعدون جزءاً من مليون من الاطباء الذين نشأوا في الارض محققين ودجالين والناهضون يعدون على الاصابع وهم ابيوقراط وهرفي وجنر وتروسو وبريتونو وباستور وباهرنغ وبرسن وكوخ وورو . والكيمياء قد تنكر نفسها ولا تنكر فضل لافوازيه وبرتلو . والزراعة لا يمكنها نسيان النتائج الآتية من تجارب السرجون لوز ورفيقه الدكتور غلبرت . والفلسفة مقرة بخدم ارسطو وابن رشد وتوما واوغسطينوس وديكارت وباكون وكانت وسبنسر والاجتماعيات تردد بالشكر والامتنان ذكر فولتير وروسو وسيمون وتولستوي . والشعر يترنم بامير وس ودانت والمتنبي وشكسبير وهوكو وكل فن مقر بافضال افراده عليه وتاثيرهم فيه . ولا عجب اذا غير الفرد من حالات امته او حرفته ما لا يغيره الالوف والملايين من العاديين .

هدم باكون وديكارت اسوار الفلسفة القديمة واسسا الحديثة واوضح دروين مذهب النشوء والارتقاء . وعلم مكس ملر الاوربيين والمشارقة كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم . وبطرس الاكبر الروسي وكرمويل الانكليزي وفرنكلين الاميركي وبسمارك الالماني والميكادو الياباني الحالي وامثالهم كثيرون ممن قد نهضوا ببلادهم بتفردهم دع عنك المصلحين والمشرعين كما ان كثيرين من الافراد قد اساءوا الى امتهم اساءات قلما يغفرها لهم التاريخ كشارلوس الثاني عشر ملك الاسوجيين ونابليون الثالث امبراطور الفرنسيس واشباههما . كولمبوس ومجلان وفاسكودي غاما اغنوا العالم باكتشافهم أدباً ومادة . ذكتور وهوكو وكل بك غيرا طرائق الانشاء في الفرنسية والتركية . مبرام والاباري واحمد

خان افادوا الهنود اكثر مما استفادوه من انفسهم وهم عشرات الملايين . بوكر واشنطون يعمل على ترقية السود اعمالاً لم يأت بمثلها ملايين منهم . فانديك و بلس والبستانيون والياز جيان افادونا اكثر مما استفدنا من مجموعنا برمته

عرف الغربيون ان الامم بافرادها فنشطوا الافراد وعززوهم ورفعوا اقدارهم ولم يقفوا بعزيز وغال في هذا السبيل : واول ما وجهوا انظارهم اليه تكثير الوسائل العامة التي يسهل وصول الافراد اليها واستخدامها في ما يقدمهم و يرقيهم فاكثروا المدارس وجعلوا التعليم الزامياً وانشأوا المكاتب للمطالعة واسسوا المنتديات للمباحثة غير جاهلين ان وجود الافراد غير متوقف على كل هذه الامور وانما حجتهم تسهيل الوسائل لظهورهم ومعاونتهم على الاستفادة والافادة اذ لا يعلم غير الله من اي فئة يبزغ الافراد في كل حين من الفقراء ام من الاواسط ام من الاغنياء . ولكن الرأي المعول عليه ان الافراد كثيراً ما يرون نور الوجود في الاكواخ والبيوت المتوسطة لا في القصور والمنازل الفخيمة . وبهذا تتضح غاية انشاء المدارس المجانية والمكاتب والمنتديات العمومية . ولم نعدم نحن في بلادنا افاضل منا ومن محبينا ادركوا هذا الامر الجليل فعملوا على ايجاده وتعزيزه

كثير من الناس لا يعبأون بغرف القراءة ولا يرون فيها غير التسلية وصرف اوقات الفراغ على انها أنشئت لغرض اسمى واعم ولا يقتصر نفعها على استمالة الشبان عن القهاوي والحانات وترقية عقولهم بالمطالعة وتهذيب نفوسهم بها بل هي مورد عذب للافراد يستفيدون منها ما يضن به الدهر عليهم . واذا لم يكن لها غير هذا النفع لكفاها فضلاً وفخراً